زكى المحاسنى
أو
اخاء ربع قرن

للاديب الكبير الاستاذ وديع
فلسطين - مصر
الصديق الصدوق لأدباء العالم العربى

إن فقدت الضاد بوفاة زكى المحاسنى علماً من أعلامها وإن خسرت فيه المنابر قطباً من اقدر المرتجلين من خطبائها وإن تفقدته الجامعات أستاذا ومحاضرا من المعدودين، وإن تجهم الشعر لغيابه، وإن غاب وجهه الصبوح عن مجامع اللغة والادب عضوا فيها، فخسارتى فى المحاسنى خسارة عمر فى الاخاء والوفاء.

عرفت المحاسنى أول ما عرفته يوم كان يتهيأ للظفر بأعلى الدرجات العلمية الجامعية من مصر، وكانت يومذاك فى صحبته رفيقة عمره ونجية قلبه زوجته وداد سكاكينى الذائعة الصيت فى عالم الادب - تغشى معه منتديات القاهرة المزدهرة، وحفول الأدب

obeikandl.com

والفكر فيها وقواعدها منصوبة على مدار العام، فان توجهت الى نقابة الصحفيين للاصغاء الى محاضرة لابراهيم عبد القادر المازنى أو محمود عزمى ألفيت هناك المحاسنى وزوجته،وان سارعت الى محاضرة للدكتور هيكل باشا فى نادى الخريجين من جامعات أوربة كان زكى ووداد فى مقدمة الحاضرين، وان مضيت الى جامعة القاهرة للاستماع الى محاضرات مصطفى عبد الرزاق أو أحمد أمين أو أحمد الشايب أو الدكتور محمد كامل حسين فالمحاسنى وقرينته أول الحاضرين وآخر المنصرفين إذ كانا يلتقيان بنخبة الجامعيين والأدباء المفكرين، وان جئت المجمع العلمى للثقافة المصرية فى موسم للمحاضرات العلمية لقيت هناك المحاسنى ووداداً مستمعين، ولا أكاد أذكر منتدى من منتديات القاهرة التى كانت فى ذلك الحين وقبل الخمسين تموج بنهضة الفكر والأدب وحيوية الثقافة والجدل والمناظرة بين أعلام المحاضرين من المصريين والمستشرقين إلا ذكرت بين الحاضرين هذين القطبين اللذين ما كانت تفوتهما سانحة من سوانح الحياة الفكرية الخصبة المتجددة ولاهما يفترقان حتى فى نادى سيدات القاهرة وحتى فى جمعيات الشبيبة الاسلامية، والمسيحية على حد سواء.

وما أحسب عربيا من غير مصر مقيما أو عابرا أو مترددا، وقف على دقائق الحياة الأدبية والاجتماعية فى مصر كما وقف عليها هذان الزوجان. وكان طبيعياً أن يجرى بيننا التعارف والتلاقى فى هذه المجتمعات، فكلنا طلاب علم وأكثرنا عشاق أدب وفن ولغة،

وكلنا كنا نتنشق عبير الحرية الفكرية فى عصر هو بحق أزهى عصور النهضة الثقافية فى بلاد العرب، وكنا نواقين للالتقاء بأكبر القيم الفكرية فى اجواء قَلّ نظيرها وعياً وتطورا وانفتاحاً على الشرق والغرب، ومسايرة لتيارات العلم والمعرفة والحضارة فى أمصار الدنيا.

ولقد كان المحاسنى الأديب ومعلم الأدب حفياً بى، ففتح لى صدره وقلبه، وإذا نحن أخوان صفيان وصديقان صادقان وإذا ببيت كل منا مفتوح للآخر نتلاقى على فكرة أو مائدة أو زيارة مختارة ما بين مصر الجديدة والجيزة أو «الروضة» حيث آثر السكنى.

أما دار «المقتطف» شيخة المجلات التى كنت أعمل فيها يومذاك فكانت قبلة العلماء والأدباء من ديار الضاد ولا سيما فى ندوة الجمعة حيث تتلاقى الأفكار والآراء على اختلاف مذاهبها ووسائل التعبير عنها وكان المحاسنى وزوجته زينة تلك الندوة بما أوتى كل منهما من أدب ولباقة واخلاص عرفا بهذه المزايا واستفاض لهما ذكر بين ذوى الأقلام فى مصر وبين أعلام الضاد من مختلف الأقطار والأمصار، وكان المحاسنى يمازحنى بقوله: لا تدع شيخوخة «المقتطف» تعدو على شبابك! وإن كانت هذه المجلة الجليلة مشت فى خطاها مع الزمان فى تطور الفكر والثقافة العلمية التى حققتها فى موضوعاتها ورسالتها.

ولئن عرف المحاسنى وزوجته كيف «يكتشفان» حياة الفكر والأدب والفن فيما صورت القاهرة فى ندواتها ومحاضراتها من هذه

الحياة التى ضجت بجدل النقاد ومقالات الكتاب والصحافيين الكبار وكان أكثرهم من الادباء، وهل فاتت المحاسنى ورفيقة ادبه وحياته محاضرة للدكتور طه حسين فى الجامعة الامريكية أو الجامعة المصرية أو من الاذاعة، وكان الزوجان الأديبان يشاركان فى الحديث والحوار من اذاعة القاهرة مع كبار النقاد والمحدثين، وجلساتهما الاسبوعية مع صديقهما المفكر الكبير نقولا حداد وزوجته روز أنطوان شقيقة فرح أنطوان فى النادى الشرقى ما كانت تتوقف وبخاصة فى آخر أيام الاستاذ نقولا حداد اللبنانى المتمصر وغيره من كبار المؤلفين والمحققين على ضفاف النيل.

وإذ كنت الصديق الموصول المودة بكثير من رواد الأدب الحديث والصحافة الأدبية وبعض الشعراء الكبار، فقد دعوت الرفيقين الاديبين الى لقاء الشاعر الخالد الذكر خليل مطران، فكنا نجتمع به فى «النادى الشرقى» أو مع شيوخ المتمصرين من اللبنانيين والسوريين الذين أقاموا فى مصر منذ زمن بعيد، وفيهم أدباء وصحافيون كانوا متمرسين بفنونهم وخصائصهم ويضيق المقال بتعداد الاسماء والوجوه التى عرفها المحاسنى وزوجته بمصر منها علماء فى اللغة والفقه والقانون، ومنها لمجمعيين مشهورين ومن قبل عرفاهم فى المقالات والمؤلفات فلما تعدد اللقاء كان منهم الود والإخاء.

على أنى بقيت أقرب الأصدقاء للمحاسنى فادركت فيما عرفت عنه وخبرت أنه منهوم أشد النهم فى طلب العلم بالكتب قديمها وحديثها، وطلب الخبرة والاسوة فى مخالطة أكابر العقول عربية

وأجنبية وأشهد أنه كان فى الأمرين قليل الارتواء، فالكتب عنده ولود وكل كتاب إنما يسلمه الى عشرات غيره من الكتب الموصولة السبب بنهم فى المطالعة والاستقصاء، أما الاتصال بالفحول وبالحياة التى لابسوها وعاشوا فيها فقد حقق له صداقة قوية وثقة غالية ومن فضل الله ان كنت له الرفيق الأمين والدليل الذى يرشده الى ما يجهل من أحياء القاهرة، وقد أقام فيها للدكتوراه ثم لمسؤوليات ثقافية فى السفارة السورية اكثر من عشر سنوات متقطعة.

ولما غادرنا المحاسنى للمرة الاولى عام ١٩٤٨ أحسست فى حياتى اليومية بفراغ كبير لا سيما وان اندية القاهرة التى كانت تعج بنشاط الفكر والثقافة والسياسة سرعان ما همدت بعد الرحيل وطوى الموت أو الانزواء وخمول الذكر اعلاما كانت رفافة وانصرفنا الى ماكنا بسبيله من كدح للعيشة ووفاء لبعض الصحف الصديقة التى كنا ننشر فيها سطورا أدبية بالمجان ولم ينقطع عنا بريد المحاسنى كما ان زياراته للقاهرة لم تنقطع فكان يأتينا على شوق فى اللقاء لالقاء محاضرات أو شهود مؤتمرات أو لعودة المهمات الثقافية التى كان يقوم بها، أو لمتابعة دراسة الانجال فى جامعة القاهرة ولا يكاد يهبط مصر التى أحبها وأحبته حتى يكون بيننا لقاء صديقين بل عناق قلبين ومناجاة صفيين، نلتقى على ضفاف النيل أو فى الضاحية أو عند سفح الهرم، ووقتى مبذول له فهو الصديق الصادق والخل الباذل الود بل كان سميرى ومجيرى وحامل همومى فلا يخاطبنى إلا «بالاخ المفدى».

ولقد مررت فى الحياة بتجارب وخطوب رأيت فيها اسوداد الافق وانتحار الامل، فكان المحاسنى على البعد والقرب، صدرا حنوناً ويدا مؤازرة، وقلباً الى المكرمات سباقاً.

ماتت أمى، فوجه المحاسنى إلىّ قصيدة فى هذه المناسبة الحزينة هى من أرق الشعر واصدقه قال فيها مناجياً أمه:

أيا أم، ما يومى لديك المودع
ففى كل يوم من لقائك مرجع
مضى الدهر كالأمس الذى كان عندنا
وعيناى ما فاتتهما فيك أدمع
وللحزن زهر والمدامع ماؤه
وهذى أزاهيرى بروضك تطلع
أهاجرتى فى الحلم، قد كنت قانعاً
بلمحك خلف الجفن أرنو واسمع
أنام لألقى وجهك الحلو فى الكرى
فاحسب شملى بعد نأيك يجمع
فما بال أعوام تمرُّ ولا أرى
خيالك مهما رمته حين أهجع
على مضجعى تصويرة لك علقت
وفى القلب طبعات لها منك تطبع
أطيف بها فى العين والنفس مثلما
تعبد مشبوب العبادة مولع

نَموت يتيماً واحتسبت مرارتى
وأنشأتنى بالحزن والدار بلقع
وحين أتيح الحظ فى ظل نعمة
عليها شبابى الطلق والعيش مموع
تغيبّتِ فى الدرب الطويل ولوعتى
على العمر لو انى لدربك أسرع
يروح الاحبا والديار شريدة
وتأتى رسالات لهم ثم ترجع
وما منك سطر فى كتاب أناله
فأتلوه لهفانَ وهو يشعشع
سأرمى وراء الأفق روحى لعلها
ترى روحك العليا ونحوك تنزع
وان فاتت الأحلام عينى فانما
على الخاطر السارى خيالك يسطع

وسافرت الى مهجرى السحيق وفى الصدر زفرات وفى الحلق غصص. فاستقبلتنى لدى وصولى هناك قصيدة من المحاسنى كانت سلواى فى حياة كنت أحسبها مؤذنة باشراق، فاذا الخطوب والهموم تستبد بى والمضايقة تتسلط على، فاغادر المهجر وبى من آلامه الحاطة على الصدر ما يورث أشد القنوط. وفى قصيدته الوداعية قال المحاسنى:

ياصديقى، يمضى الزمان سريعاً
ويرينا من أمره تبديعا
غزلت حظنا العيون ولكن
طاف حزن فيهن فاض دموعا
وتلفتُّ كى أراك فغال الطيف
حتى أطال قلبى جزوعاً

الى أن قال:

ياخليلى طول السنين، سلاماً
بردى شيق اليك نبوعا
و «فلسطين» باسمك اهتاجها
الناس كليثٍ قد كان قبل وديعاً

ولم أكد أبلغ الوطن من ديار الهجرة والغربة، حتى استقبلنى المحاسنى بقصيدة قال فيها:

عاد الهزار الى مرابعه
فقل السلام على سواجعه
قد كنت شط النيل أنشده
شعرى وأمرح فى مرابعه
لى فى ربى الأهرام فيض هوى
قد راح يغرينى بنابعه

ليس السياسة فى مزاج دمى
لكنه أدب يرائعه
سل جامعات الفكر عن خبرى
والمجمعى بيوم سامعه
وأخا الوئام وديع فى قلم
ذوب البيان على ودائعه
لما انثنى يجتاح غربته
بسبيل عيشٍ فى شوافعه
ناديته فأجاب عنا صدى
محزونة يحنو بدامعه

ولم يكتف المحاسنى بهذا الشعور السخى يفيضه علىّ، بل حيانى بقصيدة أخرى قال فيها:

خليلى، لك القلب الذى أنت أهله
ولو ساءت الدنيا تدر مناهله
أفديك بالعين التى هى ناظرى
وبالمال لو لانت لديك مباذله
ولكن نفساً بين جنبيك كالتى
حوى «المتنبى» مثلها وغوائله

الى أن قال:

ونصبر يبلوى ولا بد من غدٍ
سيدركنا فيه من السعد عاجله

وديعٌ لأنت الطود ليس تنـالـه
زعازع مهما اشتد فى الريح شامله

ولم يلبث المحاسنى ان أردف هذه التحية بجديد من تحاياه، منتهزاً فرصة صدور كتابه «أساطير ملهمة»، جاء فيها:

إليك «أساطيرى» وما العيش والورى
لعمرى إلا كالأساطير نحياها
فلا تحتمل عبء الحياة حقيقة
لقد نلت منها ما يسىء ببلواها
وديع أيا زين العباقر كاتباً
لك الشهرة الكبرى تعيش بنجواها
مثلا لأخلاقٍ ورمز مروءةٍ وعفة
دنيا بعد عُسرك يسراها

وفى كل هذا الشعر، رغب المحاسنى فى أن يشهد لاخيه شهادة إنصاف ليقول لمن تجنى: لقد جهلتم أمره وقدره، فدعوه لأهله وحقه...

وكتب لى غير مرة، والحياة تقذفنى من قمة الى حضيض، يعرض علىّ ما أشتهى من مقتنياته، ويقسم بأن روحه لروحى الفداء ـ وهو قسم أمين ليس فيه حنث ـ فكنت أجاوبه بأننى لا أطمع الا فى اخوته الباقية ومودته الغالية.

وعندما صدر لى كتاب «قضايا الفكر فى الادب المعاصر»[1] وقوبل فى عقر دارى بصمت وعقوق فلم يتناوله ناقد ولا غنى به صحافى أو أديب وما تصدى له زميل من زملاء القلم، أو طالب من عدد طلابى القدامى، فاجأنى المحاسنى العظيم بكلمة قيمة كثرت حسادى وألقمت الجاحدين أحجارا.

ولما درى أن رابطة الادب الحديث تحتفى بكتاب لى «فى الصحافة» جاء غير مدعوّ ولا مكلف، وارتجل بليغةً من بليغات كلماته، فوضعنى فى منزله كالجاحظ، وغلا فى إعلاء مكانى فى نظر السامعين.

وعندما عمل الدكتور المحاسنى ملحقاً ثقافياً لسورية فى مصر، كان صديقى الامير مصطفى الشهابى سفيراً لسورية فى القاهرة، وكان ترددى على هذين الصديقين الكبيرين متواترا وبغير مواعيد مضروبة. وأخون لقلمى شرفه إن أنا كتمت كلمة حقٍ سمعتها من الامير الشهابى مراراً فى الدكتور زكى المحاسنى. فقد حدثنى عن أدبه وخلقه، وكفاءته ونشاطه، وسفارته الادبية والثقافية بأسخى عبارات الثناء. وقال إن علم المحاسنى وفضله ينهيانني عن معاملته كمرؤوس، فهو زميلى وأخى ويمناى المعينة.

ولست بكاتمٍ أيضاً ما سمعته من أستاذنا وصديقنا العقاد العظيم عندما أشرت عليه بأن يكتب كلمة نقد وتعريف عن كتاب «شعر

(١) مؤلف لوديع فلسطين صغير بحجمه، كبير بمحتواه فقد عالج فيه قضايا فكرية وادبية بدقة الاداء وحقيقة الواقع والبرهان.

الحرب فى أدب العرب» ولم يكن العقاد قد اطلع يومها على هذا الكتاب. فلما قرأه، كتب مكبرا جهد المحاسنى معليا منهاجه العلمى رافعاً إياه الى مكانة لائقة بحقه وقدره، ولم يكتف بهذا، بل وجه اليّ شكرا فياضاً لأننى أيقظت غفلته فنبهته الى هذا الكتاب النفيس واتحت له متعة ولذاذة فكرية نعم بها فى أويقات طيبة».

لقد كان المحاسنى لى أخاً صادق الوفاء مبذول الوداد عمرا أربى على ربع قرن. فلم أره تغير لا بالمناصب التى تقلدها، ولا بالمراتب الجامعية التى أحرزها، ولا بعضويات مجامع الخلود التى دانت له ـ متأخرة مع الاسف الشديد ـ ولا بأستاذيته التى انعقد الاجماع على نسبتها إليه. فزكى المحاسنى الطالب، هو زكى المحاسنى المعلم، والمستشار والمدير، والدكتور، عضو المجامع، هو زكى المحاسنى الشاعر الكبير، هو صاحب المعدن الاصيل، والخلق النبيل.

وما كنت أنا إلا واحداً ـ مجرد واحد ـ من أحباء المحاسنى الذين صافاهم الاخاء، وبادلهم الوفاء، وأحاطهم بالعناية وطوق أعناقهم بالتكريم فى شعره ونثره وعواطف قلبه.

فيا أسرة المحاسنى المفجوعة فى عميدها الكبير، تقبلونى باكياً معكم، حزينا شديد الحسرة على من كان لى أصدق من أخ حميم وأقرب من شقيق لصديق.

ولكن حزننا على المحاسنى ينبغى أن لا ينصرف الى قنوط ونواح، بل الى تخليد لذكرى هذا الأديب الانسان العظيم الذى خلف من

الادب المخطوط أوفر مما خلفه المنشور. فالوفاء تمام الوفاء للمحاسنى هو أن تخرج للناس كتبه، فترى من خلال صفحاتها صورة هذا العربى الاصيل النبيل الذى أحب الضاد محبة عشق، وأغناها بشعره وملاحمه، ونقده ودرسه، وأشاد بنهضاتها ومآثرها وأعلامها وقضاياها، وكان دائما لسان صدق وحق، ولسان بيان وإحسان.

***

obeikandl.com